مرثية نظمت فى ساحة كنيسة ريفية

للشاعر الانجليزى توماس جراى

(تعدّ هذه القصيدة أبلغ قصائد الرثاء على الإطلاق فى الشعر الانجليزى ، وذلك لتصوير العواطف الانسانية نحو الحياة ، وما اشتملت عليه من تبيان حقيقة فلسفة الموت : وحسبك أن تقرأ ماقال المستر . ا . ف . هجتون فى تعقيبه وشرحه لتلك القصيدة : « إن ما يفيض على العقل من خيال جراى بين أرجاء القبور المتناثرة فى ساحة الكنيسة لايبعد عن دائرة أفق عقل الرجل العادى ، لكنه قد صيغ فى لهجة نفسانية عميقه ، تصبو نفس المرء الى استعمالها ، بيد أنه لا يجد الى ذلك سبيلا »... وقد قضى توماس جراى فى كتابتها تسع سنوات فكانت قصيدته هذه ذوب العاطفة الانسانية ، وقد بدأ فى كتابتها عام ١٧٤٢ م . فى « ستوك پوجز » وأتمها فى فبراير سنة ١٧٥١ م .)— المترجم .

* * *

« لقد قرع الناقوس فى الدجى ناعياً للناس أفول يوم راحل ، وسرب الأغنام الثاغية يمضى فى تؤدة فوق الكلأ ، والحارث يمم وجهه شطر داره شاقاً سبيله الوعر المنهك ، وترك الدنيا للدجى ولى ، وإن بهاء الحقول ليتلاشى أمام ناظرى والصمت باسط طنبه ، ناشر خيمته ، فلا تسمع فى الهواء نأمة أو حركة سوى صرير جرادة تثب فى الجوّ ، ودرداب النواقيس يحبب النوم إلى أعين السرب ، ونعيب البوم يدوى وهو فى قنة برج التفتّ عليه أفرع اللبلاب يشكو الى القمر المطل عبثَ مَن ساروا قريباً من عشه المجهول ، وأزعجوه فى ملكه القديم الوحيد . . . وتحت هاتيك الأشجار الحزينة الصامتة ، وظلال الدوح المتهدل ، يرقد الجدود رقدة الأبد مضطجعين فى لحودهم ، وان نسمة الصبح العاطرة ، أو أغرودة الطير الساحرة ، أو

صيحة الديك الحادة ، أو صدى البوق الداوى — كل ذلك — لن يحرك منهم ساكناً أو يبعثهم من مرقدهم الهادىء فى غياهب الزمن.

« لن توقد المدفأة لهم ، ولن ترى المرأة مهللة للقاء زوجها حين أوبته ، ولن يمضى الأطفال هاتفين فى لثغة حلوة يزفون بشرى قدوم أبيهم ، أو متخاطفين قبلته .

« لقد خرّت الأشجار إثر ضربات معاولهم ، وساروا بالأمس جماعات يقودون دوابهم يضحك سنهم عن بشر ، وكم أعملوا الفأس فى الأرض فأخصبت ، والآن ليصمت كل همزة لمزة ، ركبت نفسه من الطمع ، ولا يسخر بمسراتهم الساذجة ، ومن جدودهم التافهة الضئيلة ، ولا يهزأ الغنى حين يسمع بفقرهم فترتسم على شفتيه بسمة الاحتقار والسخرية ، وإن جلال الملك فى هذى الحياة ، وشرف المجد وسلطان الجمال وبسطة العيش ووفرة المال مآلها كلها للتراب . وأنتم يا سادة الدنيا وحكامها ، وملوكها وأقيالها ! لا تسخروا من هؤلاء الضعاف وأهل الحقول والأرياف ، فان الذكرى لترفرف عليهم بجناحيها الخفاقين ، وتنشر فوقهم ألويتها ، وقصائد المديح تردد فى البهو الفسيح إجلالا لهم ، وهل فى قدرة الضريح أن يعيد الروح الى هيكل خلّفته ، والحياة الى جسد طلقته ، والحركة الى قلب بارحته ، وهل يستطيع الشرف الرفيع أن يحرك التراب الصامت ، أم فى مكنة الرياء أن يتملق الموت ويوصل هتافاته إلى أذن الردى الباردة ؟

« لعل فى هذا الثرى الموطأ بالنعال قلباً خفق بالأمس بنيران المجد ، ولعل فيه يداً صفقت للعلا وحنت عليه ، ولعبت بتاج الامبراطورية وأشعلت نيران الحياة فى القلوب ، ولكن المعرفة والعلم لم يرفعا بعد سدولها عن صفحات غنية بتراث الزمن ، وكم فى أغوار المحيط المزبد وبحر الحياة اللجىّ الخضم من زهرة لم تكد تتفتح أكمامها عن عبقها الفوّاح حتى ضاعت معالمها وأذبلتها رياح الصحراء السامة ؟! وكم تحت ثرى هذه القرية من بطل صنديد مثل همدن ثار على المستبد الظالم الطائش ، وكم تحته من ملتون سحب النسيان عليه ذيوله وخلع الصمت فوقه سدوله ، أو كرمول سالت دماؤه استشهاداً فى سبيل وطنه ، وقد كبت جدودهم جميعاً ، فلم تتلألأ أسماؤهم فى صفحة الخلود ، ولم ينشروا ألوية السعادة تخفق فوق ربوع أرضهم ، حتى تبقى ذكراهم نبراساً يهتدى به المدلجون فى غياهب الزمن السحيق!

« لقد وقف الدهر دونهم جميعاً ، وأمات فضائلهم قبل أن يقوى غضها اللدن ، وانما أبقى حرائمهم فى ثبت الذكريات ، ومنعهم من أن يسيروا وسط لجة الدماء المهراقة الى العرش ، وأغلق أبواب الشفقة والرحمة فلم يدر الانسان كيف يلجها . وكم أرهفوا أسماعهم للحق ، وهتفوا باسمه عالياً فى كل صقع ونادٍ فلم يواتهم النداء ، واذا ثم أرفع من أن يدنسوا شعلة الشعر بالمدائح والزلفى ، فمضوا يشقون طريقهم فى الحياة الدنيا فى صمت وسكون ، ولم يركبوا متن الجهالة والشطط .

« ما هذه النصب المقامة على مدافن الموتى إلا ابقاء على ما فيها من عظام نخرة من أن تلهو بها يد الدهر القاسى فتبعثرها ويحملها الهواء فى طياته . وعلى هاتيك الأضرحة خطت أبيات الشعر الساذج يهتف بالسائرين ليرسلوها آهة من أعماق الصدور ، وهاهى المقاطيع الشعرية الجافة تسجل أسماءهم وأعمارهم ، وكم مهدت هذه الابيات القدسية للرجل الفاضل أن يلقى الموت بجنان ثابت .

« ألا خبرونى ممن هذا الذى ألقى سلاحه للنسيان وخلف دنياه ويومه الدافىء الجميل دون أن يلقى نظرة على ما ودّعه فى حسرة ؟

« إن الجسد الراحل لفى شوق الى صدر حنون يركن اليه والعين الذابلة لفى لهفة الى بعض الدموع المنسكبة ، وان صوت الطبيعة ليهتف من أعماق القبور قائلا : إن الشعور المتقد الحارّ ليصاحبنا دائماً حتى وإن كنا رمماً بالية .

« وأنت يا ممن تذكر أولئك الموتى الساذجين ! لقد سطرت فى هذه الأبيات قصة الحياة الحقيقية ـ غداً واذا أسعدك الحظ ـ ستلقى من يهتم بك كما اهتممت بهم وستدفعه الشفقة لأن يتساءل عن نهايتك وما خطه لك القدر فى حياتك ، ولعل الجد يواتيك فاذا بشيخ طاعن فى السن قد وخط المشيب شعره وكلل فوده يقول : « لقد رأيته جاداً فى سيره حين انبثاق الفجر يزيل بقدميه قطرات الندى ليواجه الشمس وهى تسكب أضواءها وشعاعها فى ذلك السهل الفسيح ، وكم جلس تحت ظلال الدوحة الباسقة ذات الافرع الشامخة الملتفة يتفرس فى المياه الجارية ويطيل النظر اليها ، ويرهف أذنيه لانغامها الشاردة ! وكم افترّ ثغره عن ابتسامة للسنبل النامى فى الحقول ، أو ضحك هازئاً حين تضاربت الافكار فى رأسه وكأنما آماله قد حطمت على صخرة الغرام الدامى ، وقد افتقدته ذات صباح على التل المعروف وبين الحشائش الكثيرة وتحت أفرع الدوحة المحببة الى نفسه فلم أعثر عليه ، وعبثاً ما كنت أظنه من انى

سأجده يوما من الايام فى السهل أو الغابة التى ألفها ، وتلى الصباح صباح فاذا بنعشه يتبادى بين زمرة من خلانه يبكونه يرتلون أنشودة الموت ميممين به شطر الكنيسة، والآن فلتقرأ على ضريحه هذه القبرية [1] المخطوطة قرب السنديانة القديمة :

« هنا تحت أطباق الثرى يضطجع شابٌ مجهول الاسم عاكسه الحظ حياً ومميتاً وإن صاحبته المعرفة وصادقه الحزن والألم ، وقد سكن النعيم الابدى لما كان عليه من خلق جزل وطبيعة سمحة ولم يحبس دموعه عن بائسى الحياة وصرعاها فمنحته السماء خدناً وفيا كان مطمح آماله . فلتصمتوا يا قوم ! ولتكفوا عن أن تثيروها ضجة صاخبة حول اسمه وفضائله ورذائله ، فما أشبهها بزهرة الأمل قد سكنت فى مأواها صامتة تحت رعاية الله ! »

حسن محمد محمود

(١) القبرية : أخذنا هذه الكلمة عن السيد عيسى اسكندر المعلوف عضو المجمع الملكى للغة العربية ، حيث استعملها فى مقالته المنشورة بالمجلد الحادى والثلاثين من « المقتطف » (ص ٣٨١) لسنة ١٩٠٦ فى قوله عن القبريات ، ونظن أن أول من استعمل هذه الكلمة ابن بطوطة فى رحلته المطبوعة فى مصر سنة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م ، (الجزء الأول ص ١١ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ١٣٥) وكررت فى الجزء التالى مراراً ، وكأن هذه الكلمة تعريب حرفى للفظة Epitaph الافرنجية وهى يونانية الأصل منحوتة من كلمتى Epi بمعنى على Taphos بمعنى قبر